

## الفصل السابع مديح الأوطان والبلدن

### ١ - الأوطان :

أحب العربي الأرض التي عاش فيها سواء أكانت قاحلة أم منبتة ، جميلة أم غليظة ، لأنها رافقت عهداً من عهود حياته وعرفت شطراً من أيام عمره ، فحن إليها وهو بعيد واشتاقها وهو غريب ، فأنشدها فيها شعرة حنيناً وحرقة ، وامتدح فيها الخير والبركة والنعيم لا لأنها خير وبركة ونعيم حقاً ، بل لأنها قطعة من عمره فحسب ! وفي الشعر العربي كثير من هذا المديح بدأ في الجاهلية ولم ينته إلى اليوم ، وإنما تطورت صفحاته وتغيرت نظرة الشاعر فيه ، لكنها لم تخرج عن الحنين والحب والمدح والدفاع عن الأرض .

ولعلنا حين نستمع إلى أحمد بن يحيى ينشدنا أحب بلاد الله إليه ، نتساءل عن هذه البلاد ، تريد أن نعرف ما منعج وما دار سلمى ؟ :

أحبّ بلاد الله ما بين منعج إلى دار سلمى أن يصبوب سحابها  
بلاد بها حلّ الشباب تمامي وأول أرض مَسَّ جلدي ترابها

فنعرف أن أحب أرض إليه تلك التي مس ترابها جلده أول ما مسّ ؛ فهي وطنه وهي موضع حبه وتقديسه . وهو في ذلك لا يخرج عن التعريف البسيط الصحيح للوطن ، لا تدخله فلسفة ولا منطق ، ولا تحده قوانين ، ولا تفرضه حقوق أو واجبات . وابن الرومي يزيدنا تعريفاً بوطنه وبلده حين يقول :

بَلَدٌ صَحِيحٌ بِهِ الشَّبِيبةُ وَالصُّبَا وَلَبَسْتُ ثوبَ العيشِ وهو جديدُ

فإذا تمثل في الضمير رأيتَه وعليه أفنان الشباب تميُد

وذلك تصوير جميل للوطن ، يتمثله الشاعر في الضمير ، فيرى الشباب  
وما إلى الشباب من عيش نضير وحياة شابة . ويقول كذلك في أسباب حب الوطن :

وَحَبَّ أوطانَ الرِّجالِ إليهِمُ ما رَبُّ قَضاهِا الشِّبابُ هنالِكا  
إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتَهُمُ عهود الصِّبي فيها فحنُّوا لذلكا

فالوطن مرتع الشباب وموطن اللذائذ الأولى ، وعمل الحب الأول يألفه الفتى  
أبد الدهر ، لا ينقلب عنه ولا يتحول ، وهم يزيدون على وصف الوطن ما فيه  
من شجر وعصاه ، ونبات ومياه ، جميلة كانت أم ضئيلة . فالشاعر يقول :

تتمتع من شميم عرار نجدد فما بعد العشية من عرار

فالعرار هذا النبات الطيب يملأ أنف الشاعر وورثته وهو في نظره أضخم  
من النخيل على شطآن النيل ، فالديار محبوبة لأنها مألوفة الأحبة وموطن الأصدقاء  
وموضع الذكريات . ولا يكون الحب للربوع إعجاباً بالحجر أو الصخر والشجر  
والماء والزهر والنور والظل والشعاع ، وإنما يكون لما ينعكس منها في النفس ،  
وينسكب في الروح ، ويجرى مجرى الدم ، فتتجسم كما يريد الخيال ، وتسمو  
كما إلى الحب ، وهذا هو الوطن : بقربه النعيم ، وفي بعده الجحيم ، كما يقول  
الشاعر :

إذا دنت المنازلُ زادَ شوقُ ولا سيما إذا دنت الخيامُ  
فلمح العينُ دون الحى شهرٌ ورجعُ الطرفِ دون السيرِ عام

والذين يحبون الوطن ينصرفون عنه وفي الكبد تصدع ، ويقبلون إليه وفي  
النفس شفاء .

وقد تبدلت نظرة العربي إلى تعريف الوطن على مدى الأجيال ، ففي القرن الثالث . قال أبو تمام يشرح حبه لاطن العربي فيقول :

بالشام قومي وبغداد الهوى وأنا بالرقمتين وبالقساط إخواني  
وما أظن النوى ترضى بما صنعت حتى تبلفنى أقصى خراسان

ونحن اليوم ننظر بعيني أبي تمام إلى هذا الوطن العربي الكبير من أقصى بغداد إلى القسقاط ومن الرقمتين إلى الشام ، ونحسد الجاهلي في الدفاع عن خيامه ، يثير الحرب عواناً من أجلها ، ويشد في النخوة والاسماتة في سبيلها ، فكم سالت دماء لحماية الحمى والذباد عن الحياض ، وكم قامت حروب على الحدود للدفاع عن أرض الوطن . وكم اشتاق الشعراء ديارهم وبكوا لبعدهم عن أرض الوطن ، كما فعل أبو فراس في القدماء ، وشوق في المحدثين . فقد تغرب كل منهما مضطراً ، وأنشد كل منهما في حب الوطن والحنين إليه وامتداحه . وشوق قضى مدة النفي في الأندلس ، فأرسل يصف وطنه في قصيدة جميلة :

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي  
وهفا بالفواد في سلسبيل ظمأ للسواد من (عين شمس)  
شهد الله لم يغب عن جفوني شخصه ساعة ولم يخل حسني

فاشتغل بوطنه أى شغل ، لا تلهيه عنه جنان النعيم ، وقد هفا إلى منزله بعين شمس فلم يغب عن جفونه ساعة ، ولم يخل من التفكير فيه وتلمس الخيال في الوصول إليه . ولا يقل عنه محمود البارودي في مدح مصر وهو بمنفاه بجزيرة ( سيلان ) حين يتنسم الهواء فيرى فيه نسيم مصر :

ونسمة كشميم الخلد قد حملت ريباً الأزاهير من ميث وأجرع<sup>(١)</sup>

(١) الميث : جمع ميثاء وهي الأرض اللينة ، والأجرع : الأرض السهلة .

يا هل أراني بذاك الحيّ مجتمعاً بأهل ودَى من قومي وأشياعي  
 فسيمها كنسيم الجنة يحمل ربا الأزهير من أرض وطنه الطرية اللينة ،  
 ويتساءل هل يجتمع إلى أهله ويرى أشياعه وأنصاره وعبيبه من أهله وبنى قومه .  
 والشعر الوطني كثير في أدبنا العربيّ يعيننا حصره وعرضه في هذه الصفحات  
 القليلة ، فقد مرت بالوطن العربيّ هزات عنيفة على مر الأجيال ، خرجوا من  
 جنان النعيم ، فغادروا الأندلس في القديم وذكروا في كل مناسبة أو لكل  
 حادثة أرضهم الحبيبة ، والحدايق الغناء التي كانت تلف منازلهم والقصور السماء  
 التي كانت موضع أنظارهم ، والهواء العليل الذي كان يغذى صدورهم ، فبكوا بكاء  
 لا ينقطع ، وأرسلوا فيها من الشعر ما لا يحصى ، والناس يذكرون قصيدة الرندي  
 في مدح الأندلس وراثتها ، ويعرفون ملازمته للذكرى الخالدة .

ونكبوا بهجمات الترك والتار والمغول ، وهجروا ديارهم لمجمعات هؤلاء  
 البرابرة ، وبكوا في قصائد عامرة بعدهم وحبيهم ، ومدحوا أوطانهم مديحاً تسيل  
 فيه المدامع وتختلط فيه الزفرات بالأشواق وعاطر النساء .

وهجمت عليهم جيوش الغرب في القرن الثالث عشر للميلاد باسم المدين  
 واحتلت جزءاً من أراضيهم ، فهجروا وسافروا وتغربوا ، ومدحوا كذلك ما خافوا .  
 ولا تسل عن قصائدهم حين عادت هذه الجيوش ثانية ، باسم الحضارة والمدنية  
 والانتداب ، فهاجر الأحرار وأرسلوا مديحهم في الوطن وحب الديار بما يملأ  
 الصفحات نساء عاطراً على الغوطتين ومشارف بردى وقاسيون ، وشيطان  
 دجلة والنيل .

وضاقت نفوس كثير منهم بالحكم العثماني فهاجروا إلى ديار العالم الجديد ،  
 ولكن قلبهم ظل عالماً بصخور لبنان وبتابع الشام وطرق يبرود وحمص فأرسل شعراء  
 المهجر في مديح وطنهم الأول مديحاً فيه غصّة وحنين وإكبار واحترام .  
 وأما الهزة الأخيرة لأهل فلسطين ، فقد قال فيها الشعراء من سكانها وغير

سكانها ما يتضائل دونه الشعر الماضي ، فأنشدوا في مديحتها كذلك وهم يمزجون الحنين بالألم وهول المفاجعة . ونحسب أن هذا الشعر الوطني الذي يتغنى به أهل المشرق والمغرب جديد في نظمه وخياله وتعبيره . قد أخذ عن الشعر الغربي شعور أهل الغرب بحب الوطن ، حتى لكأنه يقف له أو يقلده أ يترجمه .

•••

## ٢ - البلدان :

تعلق الشعراء منذ القديم بحواضر معينة فامتدحوها بشعرهم ، وكان من ذلك ديوان ضخيم . تسيل فيه عواطف الحب والإعجاب والحنين ، ويطفح بوصف الأنهار والرّبي والجوامع والساحات والأبنية والأماكن فيها ، فالوا إلى مكة والمدينة ، وقالوا فيها شعراً كثيراً هو أقرب الأشياء إلى الشعر الديني لما يظهر فيه من حب للكعبة وتقديس لروضة الرسول . وذكرى ولادة المجد وانبعاث النور . وقالوا في بغداد كثيراً ، لأنها ظلت موطن الملك ومحط الأنظار ومصنع التاريخ الإسلامي خلال قرون عدة ، فقال شاعرهم ابن زريق :

هيئات بغداد الدنيا بأجمعها      عندي وسكان بغداد هم الناس

وقال فيها شاعر مغلس يصفها في غرابة :

سقى الله بغداد من بلدة      حوت كل ما لذ الأُنْس

ولكنها منية الموسرين      كما أنها حسرة المفلس !

وقال فيها شاعر آخر يفضلها على الشام من قصيدة :

تنامُّ بها عين الغريب ولا ترى      غريباً بأرض الشام يطعم في الغمض

ولن نستند هنا أجمل ما قيل فيها . فكاه جميل تجده في تاريخها وفي الكتب

التي تشيد بحاسنها . وتستطيع أن تقع على شعر كثير في كل بلدة سكنها شعراؤنا ، وتجد بعضه في معجم البلدان لياقوت ، أو في كتب فضائل البلدان ، فقد ألفت فيها القدماء ، وجمعوا محاسن الأقوال وأطياب الشعر والنثر ، وأكثر هذه الكتب مطبوع قريب المتناول ، في فضائل حلب ودمشق وبغداد ومصر ومكة والمدينة وغيرها من المدن مما نذكره وما لا نذكره . ولو جُمع الشعر الذي جاء في مدحها لأربنى على ديوان كبير في هذا الباب .

فقد قال الشعراء في مدح همدان على شدة بردها وزمهريرها ، وقالوا في هراة لحصبها وتفاحها ونرجسها ، وقالوا في بخارى والشاش ، كما قال أبو فراس في الموصل وحلب ، وقال كشاجم في مدح مصر :

كانها الجنة التي جمعت ما تشتهي الأعين والأنفيس

وقد اشتهر الصنوبري بمدح البلدان ، فأشاد بحلب ووصفها في قصيدة طويلة ، رسم فيها جامعها وسورها وساحاتها وميادينها وحاراتها ، مما عرضنا لبعضه في كتاب الوصف ، لدقة ريشته وخصب قريحته ، فهو يقول فيها :

أنا أحمي حلياً دا رأ وأحمي من حماها  
أى حسن ما حوته حلب أو ما حواها  
فاخري يا حلب المذ ن يزد جاهك جاها  
فلمرى إن تك المذ ن رخاخاً كنت شاها

يرى الحسن فيها فيفاخر بها مدن العالم ، وهي في نظره شاه الشطرنج والمدن الباقية رخاخ فيه . ويمتدح دمشق كذلك فيرى الدنيا فيها ، تفيض بها جداول الماء خلال حدائق موشاة ، تكللتها بالفواكه في أبهى المناظر :

صفت دُنْيَا دمشق لساكنيها فلست ترى بغير دمشق دُنْيَا

ولم يقف الشعراء القدماء عند وصف عام للمدن وإنما تغلغلوا في صميمها ، فرسموا أنهارها وجبالها وأوديتها وقصورها ، وبرع الأندلسيون في ذلك براعة لا يسبقهم فيها شاعر مداح . فلكل نهر قصة ، ولكل بلد فضيلة ومكانة ، تجد بعضه في كتاب «الروض المعطار» عن جغرافية الأندلس ، فسمع لابن عبد ربه وابن خفاجة ، وابن درّاج يشدون أروع الشعر في جمال البلدان والثناء على هوائها وإقليمها ومناظرها .

• • •

والشعراء المحدثون مدحوا البلدان كذلك ، فأثنوا على ما رأوا في الوطن وغير الوطن ، فقال شوقي في مدح باريس ، والنيل ، وبردى ، ودمشق ، وزحلة ، ولبنان ، والآستانة ، وأسبانيا .  
ومن قوله في دمشق :

قَالَ الرَّفَاقِيُّ ، وَقَدْ هَبَّتْ حَمَائِلُهَا      الْأَرْضُ دَارَ لَهَا الْفَيْحَاءِ بُسْتَانُ  
جَزَى وَصَفَّقَ يَلْقَانَا بِهَا بَرْدَى      كَمَا تَلْقَاكَ دُونَ الْخَلْدِ رِضْوَانُ

فوصف مدخل دمشق والحمامات من يمين وشمال تحف بالوافد وتتلقاه فكأن الدنيا دار واسعة وبستانها (الفيحاء) ، وبردى يشق الطريق مسرعاً ليرحب بالزائر الكريم ، كأنه رضوان في جنان الخلد ، ومن قوله في بيروت :

لبنان والخلد اختراع الله لم      يوسم بأزين منهما ملكوته  
هو ذروة في الحسن غير مرومة      وذرا البراعة والحجى بيروته

فهو يجعل لبنان مقروناً إلى الجنة من أجمل ما أبدع الله ، لأنه ذروة في الحسن ، وعاصمته رأس في البراعة . ومدح مطران مسقط رأسه بعلبك من لبنان وأنشد في الثناء عليها قصيدة عامرة ، وقد شاقه الحنين إليها ، ومدح عادل الغضبان بلده حلب ، وقد طال مقامه في مصر واشتد حنينه إليها فلما استقبلته

عانقها بهذه الأبيات :

حتى يَدَّتْ حَلْبُ حَسَنَاءَ لَابِسَةً      ثَوْباً أَغْرَبَ بوشى الله مُرْدَانَا  
تمثَّلتُ لى سلطاناً وقلمتها      تاجاً يتيه به عِزّاً وسلطانا  
تحكى حَدَائِقُهَا حَفَّتْ منازلها      بحرراً مسحيقَ المدى بالسُّفْنِ مِلَانَا

ثم يصف المآذن في قلب هذا البحر السحيق ، ويرسم هذا البلد القديم ،  
وقلعتة في قلبه كتاج يتيه على مفرق الحاضرة . شاهدأ على العز والسلطان ،  
ويرى أنه سافر من وطن إلى وطن « يا بارك الله في القطرين أوطانا » .

ومدح على محمود طه مدناً في الغرب : وأنشد محمد عبد الغنى حسن  
في مديح كثير من المدن الأوربية عرفها وأقام فيها . فعاج بالذكرى إليها يملأ  
الحنين نفسه . فصاغ فيها ذوب عاطفته ورقيق شعره .

ومدح كثير من شعرائنا مدناً في البلاد العربية كالبصرة وبغداد وقرى لبنان ،  
كما مدح شعراء المهجر . نبت عزهم ومولد عبقريتهم : وقد جرى قلمنا في عرض  
قصائدهم لكتاب الوصف . فلن نعيد القول هنا وإنما نشير إشارة عابرة إلى أن  
المديح تناول عند العرب الأحياء وغير الأحياء ، حين استطاعوا أن يتخللوا هزلأ  
قريباً منهم يناجونهم كالأحياء : أو يتمثلوا الجماد يتكلم ويسمع . وقد  
تعلق شعرهم بالرؤساء والأمراء والوزراء والعلماء ، سعياً وراء الشهرة حيناً ،  
أو طوافاً على أبواب الوجهاء في كسب المال : أو تعبيراً عن عاطفة دينية : أو  
إظهاراً لشعور التشيع . أو مشاركة في السياسة ، أو ثناء على الأوطان ، وإشادة  
بعامر البلدان .